لغز تاريخى

حول وفاة القيصر الإسكندر الأول

(هل كان القيصر الإسكندر والراهب كوزمتش شخصاً واحداً ؟)

بعد أفول نجم نابليون ، وانطواء صحيفته ، وعودة السلم والاستقرار إلى ربوع أوربا كان قيصر الروسيا الإسكندر الأول يرتسم فى خيال الأوربيين بطلا من أبطال التاريخ ، ويبدو لهم علماً من أعلام الإنسانية ، ونصيراً صادقاً للمثالية المحلقة ، والمطالب الروحية السامية ، وقد سره أن يصوره الخيال العام هذه الصورة الرائعة ، ويحبوه بهذه الثقة الغالية ، فقبل القيام بتمثيل هذا الدور عن طيبة خاطر ، وفى حماسة ملحوظة وعناية فائقة ، وكان مناظروه على مسرح السياسة الأوربية من ذوى العروش القديمة والمجد المؤثل هم الإمبراطور فرانسيس عاهل النمسا ، وفردريك ملك بروسيا ، ولويس الثامن عشر ملك فرنسا ، وكان يشاطره الظهور فى ميدان الحوادث من كبار الساسة فى ذلك الوقت مترنخ وكاسلرى وتاليران .

أما الإمبراطور فرانسيس فكان رجلا قد ألف الهزائم ، ورضى الإياب غنيمة فى حروبه مع نابليون ، واضطر أخيراً أن يزوج ابنته من ذلك الجبار

الكورسيكى حتى يأمن عدوانه ، ويتقى غاراته المذلة للرقاب الراغمة للأنوف . وبعد نكبة روسيا سنة ١٨١٢ وتألب خصوم نابليون عليه كان هو آخر من اجترأ على الانضمام إلى التحالف الذى تكون للقضاء على نفوذ نابليون وتحطيم قوته ، وكان الذى يحرك دفة سياسته ويدبر أموره هو السياسى المعروف مترنخ .

ولم يكن الملك فردريك شخصية توحى الاحترام ، أو تبعث على التقدير ، ففى سنة ١٨٠٥ عند ما كانت فرنسا توقع الهزائم بالجيوش النمساوية كانت بروسيا تقف موقف المتردد ، وفى السنة التالية هزمها نابليون هزيمة شنعاء فى معركة ينا ، وهدم ما وطده لها فردريك الأكبر من مناقب ، وما بناه من مجد ، واضطر الملك إلى الالتجاء بأقصى الشمال ، ولما علم فى سنة ١٨٠٧ بالتقاء نابليون والإسكندر فى تلست أرسل ملكته الحسناء لتستلين قلبى العاهلين وتستميلهما إلى قضيته ، فلم يحرك ذلك نابليون الذى كان فى بعض المواقف يلعب دور السياسى الأصيل ، ويضع المصلحة فوق العاطفة ، أما القيصر الإسكندر الأول المشبوب الخيال المتقد العاطفة ، الولوع بالفروسية ، فقد أخذته النخوة ، وهزته الأريحة ، وعزّ عليه أن يتخلى عن الجمال فى مصابه ويخذله فى محنته ، وكان نتيجة ذلك أن عقدت معاهدة أعلن فيها نابليون أنه احتراماً لرغبات الإسكندر يسمح لفردريك وليم بأن يسترد جزءاً من مملكته السابقة ، وكان شكر فردريك للإسكندر من أجل ذلك حاراً باقيا ، ولكنه مع ذلك لم يكن أهلا للاعتماد

عليه لكثرة تردده ، ولذا كان يزدريه حلفاؤه ، ولا يثق به أصدقاؤه .

أما لويس الثامن عشر فلم يكن محبوباً ولا حائزاً للاحترام ، فقد أعادته أوربا المتحدة إلى عرش آبائه ، ولكنه أمضى سنى نفيه بين أعداء فرنسا ينتظر فى شوق وقلق هزيمة أمته ، ونكبة بلاده ، لاسترداد عرشه . وكانت حاشيته من الأمراء والأشراف الذين لج بهم الفرار من الثورة ، والذين كانوا يجهلون الجهل كله فرنسا التى خلقتها الثورة . وأوجدها نابليون ، ولذا لم يكن محبوباً من أمته ، وكانت الأمم الأجنبية لا تخشى بأسه ، ولا تعتز بصداقته ، وقد أجلسته على العرش لأن ضعف مكانته كان يبعث فى نفوسها الأمل فى السلام المنشود الذى سلبتهم إياه قوة نابليون ؛ هؤلاء كانوا منافسى الإسكندر من الملوك !

وفى مؤتمر فينا لم يستطع أقطاب ساسة أوربا الثلاثة مترنخ وكاسلرى وتاليران أن يؤثروا فيه ، أو يغلبوه على أمره ، وينزو شيطانهم على شيطانه ، فقد كان نداً لهم فى المناورات السياسية ، وكان ملك بروسيا يتبع ظله ، ويقفو أثره ، برغم نصائح وزرائه . وقد حذق فنون السياسة وتلقى أصولها على جدته كاترين العظيمة ، وهى من أقدر الملكات اللواتى جلسن على عرش روسيا ، وكان أبوه القيصر بولس الملقب بالمجنون ، وقد أخذته جدته منذ مولده وأشرفت بنفسها على تنشئته لأنها أدركت بثاقب بصرها ، وصادق فراستها ، أن بولس غير صالح للملك ، وكانت تتوق إلى تخطيه ونقل وراثة العرش إلى الإسكندر ، ولم يكن يخشى على الإسكندر من

مقارعة الساسة والنزول إلى ميادين المؤتمرات الدولية .

وكانت ثقافته أسمى مستوى من ثقافة أمراء عصره ، فقد علمته جدته استنارة القرن الثامن عشر ، وجعلته ملماً بالأفكار التى سادت ذلك القرن ، وتناولت الحرية السياسية ورد السيادة إلى الشعب ، وما إلى ذلك من الأفكار التى مهدت السبيل للثورة وهيأت لها العقول ، وكان يستطيع التحدث عن كانت و بستالوزى ، وكان أستاذه الذى تولى تثقيفه سويسرياً اسمه لاهارب ، وكان رجلا حسن التفكير خالص النية ، وكان يؤمن بالدمقراطية ويعجب بالثورة الفرنسية ، وأحسن الظن بنابليون فى أول أمره ، وكان بوجه عام يميل إلى اتباع الحق ، ولم يكن ما بينه و بين القيصر بولس عامراً ، وكان الإسكندر فى نفسه أثيراً ، ولكنه برغم ذلك لم يرتض أن يقر الملكة كاترين على خلع بولس من ولاية العهد وترشيح الإسكندر لها وقد أدى ذلك إلى إبعاده .

وجلس بولس على العرش أربع سنوات ، وكانت سنوات موقرات بالرعب والفزع والقلق ، وتكونت أخيراً مؤامرة لقتله والخلاص من عسفه ، وعلم بها الإسكندر فرجا من القائمين بها أن يكتفوا بعزله ، و يمسكوا عن إراقة دمه والقضاء على حياته ، ولكن ذلك لم يكن سبيلا مأموناً ولا خطة ميسورة ، ولذا قتلوا القيصر بولس وتركوا الفرصة سانحة للإسكندر ، فأبعد عن البلاط أكثر الذين كان اشتراكهم فى المؤامرة معروفاً بارزاً واكتفى بذلك وتنفست روسيا الصعداء ، واستقبلت عهد الاسكندر باستبشار وسرور ،

ولكن هذه الحادثة تركت فى ضمير الإسكندر جرحا دامياً لم يبرأ ولم يندمل ، وكان له أثر شديد فى الروح الدينية والنزعة الصوفية التى غلبت عليه بعد ذلك ، وأخذ ظهورها يقوى و يشتد بعد مؤتمر فينا ، واستولى عليه انقباض شديد وحزن داخلى ، وتغشت حياته سحائب من الهموم والأكدار .

وما عرفته الدنيا عن الإسكندر فى النصف الأول من حكمه كان نقيض ذلك ، فقد كان دائم المرح كثير الاستبشار ، غالياً فى التأنق ، محباً للظهور حريصاً على أن يقترن حكمه بانتصار الأفكار الحرة والنزعات السامية .

ولما تسنم العرش فى سنة ١٨٠١ كانت سنّه لا تتجاوز الواحدة والعشرين، ولم تكن له خبرة مستفيضة بشؤون الدولة فاستدعى لاهارب ، وحاول بمساعدته أن يبدأ عهد إصلاح شامل ، ونجح فى إزالة المساوىء التى خلفها حكم أبيه ، وقلل الرقابة على الأفكار ونهض بالتعليم ، ولكنه لما واجه مسألة إلغاء العبودية ، وتحرير الفلاحين ، والأخذ بأساليب الحكومات النيابية ، وجد عقبات يصعب التغلب عليها . وحارب نابليون فى سنة ١٨٠٥ و ١٨٠٦ حرباً غير موفقة ، فقد هزم نابليون جموع النمسا والروسيا فى معركة أسترلتز ، وهزم البروسيين والروسيين فى معركة فريدلاند ، وقد أدى ذلك إلى صلح تلست سنة ١٨٠٧ وظهور الصداقة بين عاهلى الشرق والغرب ، وكان كلاهما فى بادىء الأمر يعتقد بإخلاص الآخر وصدق سريرته ، ولكن بعد افتراقهما بدأت تتكاثر المشكلات ، ويدب دبيب الخلاف ، فالإسكندر الذى كان يحارب الترك حرباً منتصرة أراد أخذ مولدافيا وولاشيا ، ولكن

نابليون كان لا يرى الإفراط فى الاساءة إلى الأتراك خشية أن يدفعهم ذلك إلى الارتماء فى أحضان الإنجليز ، وأراد أن يرضى الإسكندر على حساب بروسيا ، ولكن الإسكندر لم يقره على ذلك لما أسلف من وعود للملكة لويزا الحسناء ، وحاول نابليون أن يسحر لب الإسكندر ، ويثير خياله المتوثب ، فعرض عليه مشروعا رائعاً ، وهو تقسيم تركيا والوصول إلى الهند ، وقد لمس ذلك جانب الطفولة فى خيال الإسكندر الذى كان لا يزال يستمتع بأقاصيص ألف ليلة ، فاستجاب لنابليون ، ولكنه مع ذلك لم يخدع عن أغراضه ، وأجابه بأنه يريد فى بادىء الأمر وقبل كل شيء آخر أن يملك مولدافيا وولاشيا والقسطنطينية ، ويتعهد بعد ذلك بمساعدة نابليون فى سوريا ، ولما تعذر ذلك الاتفاق التقيا فى إرفرت ليفضا الخلاف ، ويعيدا الصفاء ، وحاول نابليون أن يؤثر فى الإسكندر ، ولكن إصرار نابليون على رفض تسليم مولدافيا وولاشيا أشعر الإسكندر بأن صداقته قليلة القيمة ، غير مرجوة النفع ، فلما شكا نابليون إليه بعد ذلك الإخلال بشرائط الحجر البحرى الذى كان يريد فرضه على أوربا نكاية فى الإنجليز أنكر الإسكندر ذلك فى صورة خشنة ، وأسلوب جاف استغضب نابليون ، وأثار شديد حنقه ، وجعله يقود جيشه الكبير ليغزو الروسيا ، وهلك معظم الجيش فى عودته الفاشلة المحزنة ، فهللت أوربا للإسكندر ، واعتبرته منقذها من الدمار ، ومخلصها من الذل والهوان ، وسارت بعد ذلك جيوش الحلفاء إلى باريز .

وأظهر الإسكندر نبلا فى معاملته لفرنسا فى معاهدة باريز ، واتفق أنه التقى بعد ذلك فى سنة ١٨١٥ وهو فى طريقه من فينا إلى جيوشه ، بالبارونة كرودنر ، وهى امرأة كانت تتظاهر بالتدين ، وتدعى التنبؤ ، فصارحته بأنه خاطىء أثيم وأنه لم يخفض من كبريائه ، ولم ينهنه عن مطامعه ، وكان لوعظها أثر شديد فى نفسه ظهر واضحاً فى استمساكه بفكرة الاتحاد المقدس فى مؤتمر فينا ، وامتنعت انجلترا عن الدخول فى ذلك الاتحاد . وقد لحظ مترنخ هذه الحالة النفسية الجديدة التى طرأت على الإسكندر ، وصارح بذلك كاسلرى قائلا : « لقد أصبح عقله مدخولا » .

وهذه النزعة الدينية السقيمة جعلته يمقت الأفكار الحرة ويقلب لها ظهر المجن ، ويؤثر الرجعية ويأخذ بأسبابها ، ولم يلبث أن ملى مدام كرودنر ، ولكنه وقع بعد ذلك تحت تأثير غيرها من محترفى الدين ، وأدعياء الوعظ والإرشاد ، ودراويش الجذبة والشعوذة ، وفى سنيه الأخيرة شدد الرقابة على المطبوعات ، وضيق نطاق التعليم ، وحد من حرية الجامعات ، وكان وزيره أركشيف يشجعه على المضى فى القسوة ، والإمعان فى الظلم حتى ملى الحياة ، وسئم تكاليفها ، وأصبح دائم الترحال لا يرتضى حالة من الحالات ، ولا يطيق البقاء فى مكان واحد ، وتكاثرت السحب والغيوم فى هذا العقل الذى استغله المغرضون من رجال الدين وعصابة المنافقين ، وتراكمت حوله غواشى الأحزان وأخذت تدب فى نفسه عقارب الندم وتبكيت الضمير لإغضائه عن قتلة أبيه ، ثم ماتت

ابنته الوحيدة ، وكان لموتها فى نفسه ألم صادع وحزن فاجع ، ودبرت مؤامرة بعد ذلك لاغتياله والقضاء على أفراد أسرته ، فآلمت نفسه ، وفطرت قلبه ، وبدأ ينوء تحت أعباء الملك ، وفى سنة ١٨٢٥ ذهب إلى القرم ليستجم ويستطب من أدوائه ، ويستريح بعض الراحة من أعبائه . وتروى المراجع الرسمية وأكثر المصادر التاريخية أن حمى خبيثة أصابته فى تاجنروج فقضى نحبه فى ١٩ نوفمبر من العام نفسه ، واحتفل بدفنه احتفالا مهيباً ، ودفن جثمانه فى كاتدرائية حصن القديس بطرس والقديس بولس ، ولكن عقب موته ذاعت إشاعة وملأت أرجاء روسيا وهى أن القيصر الإسكندر خصم نابليون اللدود ، وحامل رسالة السلام إلى أوربا لم يمت فى تاجنروج ، وإنما انقلب متصوفاً زاهداً فى مباهج الدنيا ، وأمجاد الحياة الأرضية الزائلة ، وأنه خلع رداء الملك ، وألقى من يده الصولجان ليفرغ للحياة الدينية ، وأن الجثة التى احتفل بدفنها احتفالا عسكريا رائعاً فخماً إنما كانت جثة جنـــدى مجهول ، وأن القيصر الإسكندر اتخذ اسم الراهب كوزمتش الذى ظهر بعد سنوات عدة فى مدينة توبولسك فى سيبريا ، ثم ضعف أثر هذه الإشاعة ، ولكنها ظلت مع ذلك يتداولها المؤرخون الروسيون ، ففريق منهم يرفضها وينفيها فى احتقار واستخفاف ، وفريق آخر يشير إليها إشارات غامضة ملتبسة تلقى فى الروع أن الظروف السياسية كانت لاتسمح له بالتصريح برأيه ، وقد آمن بها بعض مفكرى روسيا وفى طليعتهم أديبها الكبير وفيلسوفها العظيم

طولسطوى ، وكادت هـذه الحقيقة ، أو الإشاعة تلوذ بعالم الخرافات والأساطير . ولكن حدث مابعثها من مرقدها و بث فيها حياة جديدة ، وذلك أنه فى سنة ١٩٢٧ نبشت الحكومة السوفيتية قبور القياصرة لتأخذ منها ما عسى أن يكون بها من نفيس الجواهر ، ورأى الحاضرون رفات بطرس الأكبر ، وبقايا كاترين الثانية فى ثيابها الفاخرة وحليها وجواهرها. ولكن لما فتح تابوت الإسكندر وجد خالياً فعادت الأسطورة القديمة إلى قوتها وتساءل الباحثون من جديد عن نصيبها من الحق والواقع .

وحوالى سنة ١٩٢٩ مات فى إيتونيا رجل فى التسعين من عمره اسمه فيكتور باسلفسكى ، وكان معروفاً بأنه من كبار التجار الموسرين وأوسعهم ثروة وأنه يملك الكثير من مناجم الذهب فى سيبريا ، وكان ملماً بها خير إلمام عارفاً بدقائق أحوالها ، وعند موته ترك مذكرات تلقى ضوءاً على هذا اللغز التاريخى ، وقد ذكر بها أن أحد أتباعه فى سيبريا واسمه كروموف زاره مرة ، وهو فى حالة انفعال وتأثر شديدين ، وأفضى إليه بقصة غريبة ، وهى أن راهباً ناسكا اسمه فيدور كوزمتش كان يعيش منذ سنين فى إحدى ضياعه ، وكان الفلاحون يحبونه لدماثة أخلاقه ، ولما أمعن فى الشيخوخة ، وأصابه مرض خطير ، وأحس بدنو أجله ، وقرب خاتمته ، استدعى كروموف ، وكاشفه بأنه هو الإسكندر الأول الذى ظن الناس أنه مات سنة ١٨٢٥ ، وأخبر كروموف أنه أمر بإذاعة خبر وفاته رغبة منه فى اعتزال الحكم والابتعاد عن الشؤون الدينوية ،

وأوصى أن يدفن فى التابوت المخصص له رفات جندى مجهول ، وقدم لكروموف من الأدلة والوثائق ما يثبت شخصيته ، وطلب إليه أن يحملها إلى ابن أخيه القيصر الإسكندر الثانى ، وتوسط باسلفسكى فى جعل القيصر يسمح بمقابلة كروموف ، واقتنع القيصر بما قاله ، ولكنه أوصاه بكتمان الأمر.

ولكن ما شأن التابوت الخالى ؟ وماذا كان من أمر جثة الجندى ؟ يروى باسلفسكى أنه فى سنة ١٨٨٢ أمر القيصر الإسكندر الثالث بنقل رفات الجندى من تابوت الإسكندر الأول ودفنه فى إحدى مقابر بطرسبرج ، وقد كتبت الدوقة أولجا الكسندرفنا شقيقة القيصر نقولا الثانى رسالة إلى باسلفسكى أفضت إليه فيها بأنها هى وأكثر أفراد أسرة رومانوف الأحياء يعتقدون أن الراهب فيدور كوزمتش والإسكندر الأول شخص واحد .

وقد ألف الأمير[1] باریاتنسكى كتابا فى هذا الموضوع وأثبت فيه بأدلة مقبولة أن بقايا الجنـدى أزيلت بأمر القيصر الإسكندر الثانى فى ربيع سنة ١٨٦٦ أى بعد وفاة الراهب كوزمتش بعامين ، ويعلل باریاتنسكى ذلك بأن الإسكندر اضطر إلى أن يسلك هذا المسلك ، ويبالغ فى التخفى تفادياً لإثارة القلاقل ، وأنه كان كثيراً ما يؤكد عزمه على التنازل عن العرش ، وكان يخشى الاعتداء على حياته ، وكانت روسيا فى عهده فاسدة الإدارة مختلة الأوضاع ، ولكن بعض الذين يشكون فى أن الراهب كوزمتش هو

(١) Le Mystère d'Alexandre 1. Par Prince Vladimir Bariatinsky (Paris Payet)

الإسكندر يقولون إن هناك أربعة أشخاص كانوا شديدى الاتصال بالإسكندر بحيث كانوا يعلمون الحقيقة لو أن وفاة الإسكندر كانت زائفة مصطنعة ، وهم الأمير ولكونسكى وطبيبه الخاص السير چيمس ويلى وناراسوف والقيصرة ، وكل منهم كان حاضراً عند وفاته ، وقام الأطباء بتشريح الجثة وأمضوا معاً التقرير القانونى ، وبار ياتنسكى ينقض صحة ذلك التقرير ويقدم آراء ثلاثة من كبار الأطباء تثبت أن أعراض المرض المذكورة فى تقرير الوفاة لا تلتئم مع العلة التى يعزو إليها الأطباء سبب موت القيصر ، ويرى بار ياتنسكى أن حاكما أوتوقراطياً مثل الإسكندر لا يعجزه تدبير خطة اختفائه ، وتغطية الموقف .

ولكن القيصر الإسكندر كان رجلا جهير الرواء ، رائع الصورة ، بارز الشخصية ، وكان كثير التنقل فى أنحاء روسيا ومن ثم كان معروفا بطلعته الغراء وسلوكه الآمر ، ومع ذلك فإن هذه الأسطورة أو الحقيقة تريدنا على أن نصدق أنه قد اختفت آثاره ، وانقطعت أخباره ، لمدة إحدى عشرة سنة ، برغم سريان الإشاعة القائلة باختفائه ، وذلك لأن أول ظهور الراهب كوزمتش متصوفاً دينياً كان سنة ١٨٣٦ .

وكان الراهب كوزمتش رجلا ممتازاً سامى الثقافة ، غزير العلم ، عارفا بالدنيا ، قوى الشخصية ، جذاب الحديث ، فالشكوك الحائمة حول وفاة القيصر الإسكندر الأول شكوك قوية ليس من السهل تبديدها ، والتخلص من وساوسها ، فهل فكر الإسكندر تفكير ملك الحيرة [1]

(١) صفحة ٢٠٤ من كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجى زيدان

النعمان بن امرىء القيس السائح صاحب الخورنق إذ أشرف منه فأعجبه المنظر ، وراعته مظاهر الثروة والمجد ، ففكر فى ذلك وناجى نفسه قائلا : « أى درك فى هذا الذى قد ملكته اليوم و يملكه غدا غيرى ؟ » فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه ، فلما جن الليل التحف كساءه وساح فى الأرض فلم يره أحد ؟ وهل استولت عليه حالة نفسية كالحالة التى استولت على جوتاما الهندى فهجر قصر أبيه وأولاده وزوجته وطلب الخلاص وأصبح بعد ذلك معروفا عند الناس والتاريخ باسم بوذا ؟ هذه أسئلة لا يستطيع التاريخ فى الوقت الحاضر الإجابة عنها ، وقد تظل لغزاً خفياً يزيده مر الأيام تعقيداً وخفاء ، وقد تنجلى فى المستقبل حقائق تعين على كشف سره ، ولكن سيظل العالم إلى ذلك اليوم يردد أن موت الإسكندر الأول قيصر الروسيا ، وخصم نابليون ، وعاهل أوربا ، و بطلها يوماً من الأيام تحوم حوله الظنون ، و يكتنفه الخفاء والغموض .